# سيكولوجية الصمت

## دراســـة إســـلامية نفســـية

د. عبد الباري محمد عبد الباري داود
مدرس بقسم الفلسفة بكلية الآداب - بنها

### (١) تعريف الصمت *

قال بعض العلماء : الصمت نور العقل ، والنطق يقظة ، وكل يقظة تحتاج إلى نوم . وما صمت عاقل قط إلا اجتمع عقله وحضر لبه[١] . ويقال : إذا قل الكلام كثر الصواب. كما يقال : كل كلمة من هزل أو مزح أو لغو يوقف عليها العبد خمس مواقف بتوبيخ وتقدير .

أولهما : أن يقال له لم قلت كذا أكانت فيما يعنيك . والثانية هل نفعتك إذ قلتها والثالثة : هل ضرتك لو لم تقلها . والرابعة : ألا سكت فربحت السلامة من عاقبتها . والخامسة هل جعلت مكانها قول سبحان الله، والحمد لله ، والله أكبر ، ولا إله إلا الله فغنمت ثوابها.

ويقال : ما من كلمة إلا ويبشر لها ثلاثة دواوين . الديوان الأول : لم؟، والثاني : كيف ؟ والثالث : لماذا ؟ وفي الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا ثلاثا ، أمر بمعروف ، أو نهي عن منكر ، أو ذكر الله سبحانه وتعالى .

وفي الخبر أيضاً : إذا رأيتم الرجل قد أوتي صمتاً وزهداً فاقتربوا منه فإنه يلقى الحكمة.

---

* مما يروى أن الصمت دوام العقل ، والنطق يقظته ، ولا بد من كل إلا بعقل ، فلا بد من الصمت والكلام.

( ابن رجب الحنبلي : جامع العلوم والحكم ، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور . القاهرة : مطابع الأهرام ، ١٩٦٩ م جـ٢ ص : ٨٢ )

(١) أبو طالب المكي : قوت القلوب ( لبنان : دار صادر ، د. ت ) جـ١ ص : ٩٦.

وقد جاء فى الخبر أن أكثر خطايا ابن آدم فى لسانه وأكثر الناس ذنوبا يوم القيامه أكثرهم خوضا فيما لايعينه . من هنا قال لقمان لابنه هو يعظه لأن تعيش أخرس يسيل لعابك على صدرك خيراً لك من أن تنطق فى نادى القوم بمالا يعنيك.

وفى موعظة النبى صلى الله عليه وسلم جاء فيها : طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس وأنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل فى قوله.

ومما قاله بعض الحكماء ، لابنه واعظاً له : يابنى كن جواداً بالمال فى مواضع الحق ، ضنيناً بالأسرار عن جميع الخلق .(١)

وقال بعض الحكماء : فى الصمت سبعة آلاف خير ، وقد اجتمع ذلك كله فى سبع كلمات ، فى كل كلمة منها ألف . أولها : أن الصمت عبادة من غير عناء . والثانية : زينة من غير حلى . والثالثة هيبة من غير سلطان والرابعة : حصن من غير حائط . والخامسة : الاستغناء عن الاعتذار إلى أحد : والسادسة : راحة الكرام الكاتبين . والسابعة : ستر لعيوبه . (٢)

وعن عبد الله بن عمرو بن العاصى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى اله عليه وسلم « من صمت نجا » (٣)

لقد جعل الله سبحانه وتعالى لكل شىء بابين ، وجعل للسان أربعة أبواب : الشفتين مصراعين ، والأسنان مصراعين (٤).

---

(١) أبو الحسن البصرى : أدب الدنيا والدين ( القاهرة : المطبعة الأميرية ، ١٣٢٩هـ ) ص : ٣١٠

(٢) السمرقندى: تنبيه الغافلين.القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ، مطبعة الحلبى، د. ت ) ص : ٧٩

(٣) رواه مسلم فى صحيحه.

(٤) ابن حبان البستى : روضة العقاد ونزهة الفضلاء (القاهرة : مكتبة السنة المحمدية ، د.ت) ص:٤٥

وحكى أن بعض الحكماء رأى رجلاً يكثر الكلام ويقل السكوت فقال له : إن الله تعالى إنما خلق لك أذنين ولسانا واحداً ليكون ما تسمعه ضعف ما تتكلم به.

ومن هنا قال بعض البلغاء : احبس لسانك قبل يطيل حبسك ، أو يتلف نفسك، فلا شيء أولى بطول حبس من لسان يقتصر عن الصواب ويسرع إلى الجواب.

وقال أيضاً : كلام المرء بيان فضله وترجمان عقله فاقصره على الجميل واقتصر منه على القليل ، وإياك وما يسخط سلطانك ويوحش إخوانك ، فمن أسخط سلطانه تعرض للمنية ، ومن أوحش إخوانه تبرأ من الحرية.

وروى أن أعرابياً تكلم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وطوّل فقال له النبى صلى الله عليه وسلم كم دون لسانك من حجاب ؟ قال : شفتاى وأسنانى . قال فإن الله عز وجل يكره الانبعاق فى الكلام ، فنضر الله وجه امرىء أوجز فى كلامه فاقتصر على حاجته.

وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : رحم الله من قال خيراً فغنم أو سكت فسلم.

من هنا يتبين لنا حقيقة الصمت . وتفسير هذا ماثبت فى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت ».

والتكلم بالخير خير من السكون عنه ، والصمت عن الشر خير من التكلم به ، فأما الصمت الدائم فبدعة نمهى عنها .[1].

---

(١) ابن تيمية : الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ( القاهرة مطبعة المدنى ، ١٤٠١هـ ص ٥٠)

وفى الخبر : الصمت* زينة العالم وستر الجاهل.

ويؤيد هذا القول بقول بعض الحكماء : الزم الصمت تُعد حكيماً جاهلاً كنت أو عالماً.

من هذا القول السابق لأحد الحكماء أن الصامت الجاهل يعدّ حكيماً.

وكان بعض الحكماء يحسم الرخصة فى الكلام ويقول : إذا جالست الجهال فأنصت لهم، ، وإذا جالست العلماء . فأنصت لهم . فإن فى انصاتك للجهال زيادة فى الحلم ، وفى إنصاتك للعلماء زيادة فى العلم.

ومن هنا قال بعض السلف : تعلم الصمت كما تتعلم الكلام فإن يكن الكلام يهديك فإن الصمت يقيك ولك فى الصمت خصلتان تدفع به جهل من هو أجهل منك ، وتعلم به علم من هو أعلم منك.

وقال بعض الحكماء : ليس شيء أشد على الشيطان من عالم حليم إن تكلم بعلم وإن سكت سكت بحلم . يقول الشيطان : أنظروا إليه سكوته أشد عليّ من كلامه.

كما قالوا أيضاً : إن الكلام إذا كثر عن قدر الحاجة وزاد على حد الكفاية وكان صواباً لايشوه خطل ، وسليماً لايتعوّده زلل فهو البيان والسحر الحلال.

من هنا سأل رجل حكيماً فقال له متى أتكلم ؟ قال الحكيم : إذا اشتهيت الصمت . فقال له أيضاً متى أصمت ؟ قال : إذا اشتهيت الكلام.

---

* اللسان هو أداة التعبير الأولى عن النفس . والنفس ميالة لأشياء كثيرة . واللسان أقرب الطرق للتعبير عن هذه الأشياء . وما أكثر الأشياء التى تميل إليها النفس ولايصح أن تظهر على اللسان. ( سعيد حوى : تربيتنا الروحية ، القاهرة مكتبة وهبه ، عابدين ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٩ هـ ص : ٤)

وبعبارة أخرى : إذا أعجبك الكلام فاصمت وإذا أعجبك الصمت فتكلم.

ولعلنا نلاحظ على هذا القول السابق لهذا الحكيم أنه يطالب المرء بأن يقف موقف المخالفة من نفسه . وهذا لون من ألوان التربية النفسية التى أمرتنا بها الشريعة الإسلامية.

لذلك كان الخير كله فى معاداه النفس جملة فى الأحوال كلها . لأن مخالفة النفس ومفارقة أهوائها يجعل الإنسان قلبه مع الله.

ومما ينبغى توضيحه عن النفس أنها خلقت جاهلة ظالمة فهى لجهلها تظن أن شفاءها فى إتباع هواها ، وإنما فيه تلفها وعطبها.[1] فالهوى أكبر أدوائها ومخالفته أعظم أدويتها.

من هنا كان لابد من مخالفة النفس وتصفية الباطن.[2]

وقد قيل النفس ضد الله وعدوه ، والأشياء كلها تابعة لله ، والنفس لله خلقاً وملكاً، وللنفس إدعاء وثمن وشهوة ولذة بملابستها ، فإذا وافقت الحق عز وجل فى مخالفة النفس وعدوانها فكنت لله خصماً على نفسك.[3]

إذن فمن الواجب على المرء أن ينسلخ من نفسه كما تنسلخ الحية من جلدها.

وعلى ضوء ما تقدم فإن الصمت يجعل الإنسان أن يرتفع بنفسه فوق شهواتها . وهذا معناه أن يتحرر تماماً من كل مايعوق حريته.

---

(١) ابن قيم الجوزية : الطب النبوى ( مكة : دار النهضة الحديثة ، ١٣٩٩هـ ) ص : ١٨٥ .

(٢) مقداد يالجن : دور التربية الأخلاقية الإسلامية ( القاهرة :دار الشروق ، ط٣ ١٤٠٣ه) ص : ٢٠

(٣) عبد القادر الجيلانى : فتوح الغيب (القاهرة:مطبعة الحلبى ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٢هـ) ص:٢٥

ويربط الرسول صلى الله عليه وسلم بين الإيمان بالله واليوم الآخر



« من كان يؤمن الله واليوم الآخر فلا يؤذى جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت».

هكذا يتبين لنا أن الصمت يرتبط إرتباطاً شديداً فى القول بالخير والصمت عن الشر كما أوضح رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومما ينبغى أن يفهم أن الصمت من آداب الحضرة الإلهية* لقول تعالى : « وإذا قريء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ».

والحكمة فى الصمت لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : «الصمت حكمة وقليل فاعله»[1].

فمن لم يكن الصمت وطنه فهو فى الفضول وإن كان صامتاً. والصمت ليس بمخصوص على اللسان لكنه على القلب والجوارح كلها.

وعلى ضوء هذا القول السابق نستطيع أن نقول إذا كان الصمت من آداب الظاهر فهو كذلك من آداب الباطن.

وقيل عفة اللسان صمته . كما قيل : مثل اللسان مثل السبع إن لم توقفه عدا عليك.

فمن الواجب على العاقل أن ينصف أذنيه من فيه ويعلم أنه إنما جعلت له أذنان وفم واحد ليسمع أكثر ممن يقول ، لأنه إذا قال ربما ندم ،

---

* يراجع فى ذلك: Mohamed Ekbal : The Conce Ption of Good and the meaning of prayer . III, P : 80

(١) رواه القضاعى عن أنس والد يلمى فى المسند عن ابن عمر.

وإن لم يقل لم يندم ، وهو على رد مالم يقل أقدر منه على رد ماقال. والكلمة إذا تكلم بها ملكته ، وإن لم يتكلم بها ملكها ، والعجب ممن يتكلم بالكلمة ، إن رفعت ربما ضرّته ، وإن لم توفع لم تضره ، كيف لايصمت ؟! ورُبَّ كلمة سلبت نعمة![1].

وقيل : العافية عشرة أجزاء ، تسعة منها فى السكوت *.

وقال بعض العلماء : ماأعوز ما يتكلم به العاقل أن لايتكلم إلا لحاجته أو لحجته ولايفكر إلا فى عاقبته أو فى آخرته . كما قال بعض الفصحاء : فم العاقل ملجم إذا هم بالكلام أحجم ، وفم الجاهل مطلق كما شاء أطلقه.

وقال أيضا: اعقل لسانك إلا عن حق توضحه ، أو باطل تدحضه ، أو حكمة تنشرها ، أو نعمة تذكرها.

ومما قيل : إذا كان الإيجاز كافياً كان الإكثار عياً، وإن كان الإكثار واجباً كان التقصير عجزاً.

وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لعمه العباس يعجبنى جمالك قال : وما جمال الرجل يارسول الله . قال : لسانه.

فاللسان وزير الإنسان حسبما يرى بعض الحكماء.

من هنا قال بعض البلغاء : الزم الصمت فإن يكسبك صفو المحبة ، ويؤمنك سوء المغبة ، ويلبسك ثوب الوقار ، ويكفيك مؤنة الاعتذار.

كما قال أحد الشعراء [2] :

---

(١) ابن حبان البستى : روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ص : ٤٥

* ينبغى أن نوضح هنا الفرق بين الصمت والسكوت . فالصمت سكوت اللسان ، وشغل النفس بالكلام أما السكوت فهو سكوت اللسان والنفس جميعاً ( المحاسبى : التوبة هامش ص : ٢٥)

(٢) تقول الحكمة الصينية العتيقة : « من يعلم لايتكلم ، ومن يتكلم لايعلم ».

رأيت العـــز فى أدب وعقل وفى الجهل المذلة والهوان.

وماحسن الرجال لهم بحسن إذا لم يسعد الحسن البيان

كفـــى بالمـرء عيباً أن تراه له وجـــه وليس له لسان

وقد قيل : بين الصمت * والنطق برزخ فيه قبر العقل وقبور الأشياء . فمن أطال صمته اجتلبت من الهيبة ما ينفعه ومن الوحشه مالا يضره.

وقال صلى الله عليه وسلم فى الخبر الجامع المختصر : من سره أن يسلم فليلزم الصمت.

كما أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ بالصلاة والصيام وغير ذلك ، ثم قال فى آخر وصية ألا أدلك على ماهو أملك لك من ذلك كله وأومأ بيده إلى لسانه . فقلت يارسول الله وإنا لمؤاخذون بم تتكلم به ألسنتنا . فقال : ثكلتك أمك يامعاذ وهل يكب الناس على مناخرهم فى جهنم إلا حصائد ألسنتهم.

من هنا يمكن أن يقال : لسان المؤمن من وراء قلبه إذا أراد أن يتكلم تفكر فإن كان له تكلم وإن كان عليه أمسك ، وقلب المنافق على طرف لسانه ، أى كل شىء خطر بقلبه تكلم له ولايتوقف ولا ينتهى .

وفى الخبر : من آفة العالم أن يكون الكلام أعجب إليه من الصمت . وفى الكلام تنميق ووزر ، وفى الصمت سلامة وغنم.

فمادمت ساكتاً فأنت سالم ، فإذا تكلمت فخذ حذرك.

ومما يروى أن العبد ليتكلم بالكلمة مايلقى لها بالاً يهوى بها أبعد ما بين السماء والأرض.

* تقول الحكمة الصينية العتيقة : « من يعلم لا يتكلم ، ومن يتكلم لايعلم ».

(الحكيم الترمزى : ختم الأولياء ، تحقيق عثمان إسماعيل ، بيروت : المطبعة الكاثوليكية ص : ١٧)

وفى لفظ آخر ليتكلم بها فيهوى فى جهنم سبعين خريفاً.

وفى خبر : من افتتح بكلمة سوء ثم خاض الناس فى مثلها كان عليه مثل أوزارهم.

وفى الخبر : لايأتى بخبر السوء إلا رجل السوء.

ولبيان أهمية الصمت قال بعض الحكماء مقتل الرجل بين فكيه.

وكذلك أورد بعض البلغاء أن الحصر خير من الهذر لأن الحصر يضعف الحجة والهذر يتلف المهجة.

ومن وصايا لقمان لابنه أنه قال : يابنى إن الرجل ليتكلم حتى يقال أحمق ، وماهو بأحمق ، وإن الرجل ليسكت حتى يقال له حكيم وماهو بحكيم [1] فلو لم يكن فى الصمت خصله تحمد إلا تزين العاقل وتستر الجاهل به لكان الواجب على المرء أن لايفارقه الصمت ماوجد إليه سبيلا، ومن أحب السلامة من الآثام فليقل ما يقبل منه ، لأنه لايجترىء على الكلام الكثير إلا فائق* أو مائق*.

ولقد أورد أحد العلماء أهمية الصمت بقوله : أقلوا الكلام إلا فى تسع ، تسبيح ، وتحميد وتهليل ، وتكبير ، وقراءة قرآن ، وأمر بمعروف ، ونهى عن منكر ، وسؤالك الخير ، وتعوذك الشر[2].

ولعل من ذلك يتضح لنا مدى أهمية الصمت ، إذ لو كان الفضل

---

(١) أبو نعيم الأصبهانى : حلية الأولياء ( القاهرة : مطبعة السعادة، ١٣٩٩هـ) جـ٢ ص:٢٠

* الفائق : المتفوق على القدرة على حسن التأتى وانتقاء القول من واسع ماعلم . فهذا يقدم على الكلام فائقاً مثبتاً فيفيد :

* المائق : الأحمق السفيه الذى لايهمه أن يلقى بنفسه فى كل ورطة ، وأن يزج بنفسه فى كل بلية لاخلاص منها لأنه لايقدر على العواقب ، ولايفكر فى المصائر . ( ابن حبان البستى : روضة العقلاء ص : ٤٧)

فى فصاحة اللسان لكان سيدنا هارون أولى بالرسالة من سيدنا موسى عليه السلام (١).

قال تعالى : « وأخى هارون هو أفصح منى لساناً فأرسله معى ردءاً يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون » ( القصص : ٣٤ ).

ويربط الرسول صلى الله عليه وسلم بين الصمت وقضاء الحاجات بقوله « استعينوا على الحاجات بالسر والكتمان فإن كل ذى نعمة محسود».

من هنا كان الصمت طريقاً يتقرب به العبد من ربه سبحانه وتعالى حتى يكون طائعاً الله . فمن أطاع الله فقد ذكره ، ومن لم يطعه فليس بذاكر له.

هكذا يصبح الصمت مسلكاً أساسياً للتخلص من مقت الله تعالى وطريقا للوصول إلى طاعته.

والصمت بكل حال درجة من الدرجات العالية التى يحظى بها العبد السالك طريقه إلى ربه . كما أنه سبب داع للسالك والمحقق إلى نيل عظيم الأحوال للسالكين والأسرار للمحققين.

## (٢) أقسام الصمت :

الصمت من أمهات الطريق وهو نوعان : صمت باللسان عن الحديث لغير الله ، وصمت بالقلب عن كل خاطر يخطر له فى النفس فى أى كون من الأكوان ألبته . فمن صمت لسانه ولم يصمت قلبه خف، وزره ، ومن صمت لسانه وقلبه ظهر له سره ، وتجلى له ربه ، ومن صمت قلبه ولم

---

(١) عبد الحليم محمود : عبد الله بن المبارك ( القاهرة : مطابع الشعب ، ١٤٠٢هـ ) ص : ١٣٩.

(٢) ابن عجيبة: إيقاظ الهمم فى شرح الحكم ( القاهرة : مطبعة الحلبى ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٢هـ) ص : ٣٢٢.

يصمت لسانه فهو ناطق الحكمة أى ناطق بلسان الحكمة . ومن لم يصمت بلسانه ولا بقلبه كان مملكة للشيطان ومسخرة له.

فصمت اللسان من منازلة العامة وأرباب السلوك . وصمت القلب من صفات المقربين أهل المشاهدات . وحال صمتهم التأنيس ، لأنهم لاحديث لهم إلا مع ربهم وحال صمت السالكين السلامة من الآفات.

فمن التزم الصمت فى جميع الأحوال كلها لم يبق له حديث إلا مع ربه [1].

ومن ناحية أخرى فإن الصمت ينقسم إلى صمت بالظاهر ، وصمت بالقلب والضمائر فالمتوكل يسكت قلبه عن تقاضى الأرزاق ، والعارف يسكت قلبه مقابلة للحكم بنعت الوفاق . فهذا بجميل صنعه واثق وهذا بجميع حكمه قانع.[2]

ولقد قيل : صمت العوام بألسنتهم ، وصمت العارفين بقلوبهم ، وصمت المحبين من خواطر أسرارهم.

وينبغى أن نوضح أن مقام الصمت هو مقام الوحى على ضروبه.[3]

ونوجه الانتباه هنا إلى أن الصمت على الإنسان محال فى نفسه ، فإذا انتقل من الحديث مع الأغيار إلى الحديث مع ربه كان ناحياً مقرباً مؤيداً فى نطقه إذا انطق فإنما ينطق بالصواب لأنه ينطق عن ربه.

فالنطق بالصواب نتيجته الصمت عن الخطأ ، والكلام مع غير الله تعالى خطأ من كل وجه، ولغير الله سوء من كل وجه.

(١) أبو طالب المكى : علم القلوب ، تحقيق عبد القادر عطا ( القاهرة : مكتبة القاهرة ، د. ت ) ص : ٢٨٧.

(٢) القشيرى : الرسالة ( القاهرة : مطبعة صبيح ، د. ت ) ص : ٩٧

(٣) ابن الخطيب : روضة التعريف بالحب الشريف ( القاهرة : طبعة القاهرة الأولى ، ١٣٨٦هـ) ص : ٧١

قال تعالى : « لاخير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقه أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً . (النساء : ١١٤).

## (٣) الصمت عند الأنبياء.

الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، تولاهم الله بالنبوة ، أحل لهم أموراً ، وحرم عليهم أخرى قصرها عليهم دون غيرهم .[١] والأنبياء هم خيرة الخلق ، وصفوة البشر ، وهذا الإكرام لهم بالنبوة إنما هو بفضل الله وبمحض الفضل الإلهى والحكمة الربانية ولايمكن لأحد من البشر مهما سما فى سلم الكمال ـ أن ينال مرتبة النبوة عن طريق الرياضة النفسية ، أو الجهد فى الطاعة والعبادة ، فإن النبوة لاتنال بالكسب ولاتحصل بالعزم والمثابرة على فعل الخير والطاعة ، إنما هى هبة من الله وإصطفاء واختيار لهم [٢].

ونسوق الآن بعض الأمثلة على مانحن بصدده.

يحدثنا ابن عطاء الله السكندرى عن الخليل إبراهيم عليه السلام : ألا ترى أن إبراهيم الخليل عليه السلام لما قال له ربه أسلم لرب العالمين فلما زج به المنجنيق استغاثت الملائكة قائلة : ياربنا هذا خليلك قد نزل ما أنت به أعلم . فقال الحق سبحانه وتعالى: اذهب إليه ياجبريل فإن استغاث بك فأغثه ، وإلا فاتركنى وخليلى ، فلما جاء جبريل عليه السلام فى أفق الهواء قال : ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا وأما إلى الله فبلى . قال : فاسأله.

---

(١) النبهانى ، يوسف بن إسماعيل : جامع كرامات الأولياء ( بيروت : المكتبة الشعبية ، ١٣٩٤هـ) جـ١ ص٨٦

(٢) محمد على الصابونى : النبوة والأنبياء ( القاهرة : طبعة القاهرة الثانية ، ١٤٠٠هـ) ص١٤

قال : حسبى من سؤالى علمه بحالى ، فلم يستنصر بغير الله ولا جنحت همته بغير الله ، بل استسلم لحكم الله مكتفياً بتدبير الله له عن تدبيره لنفسه ، ورعاية الحق له عن رعايته لها ، وبعلم الله سبحانه وتعالى عن سؤاله علماً منه أن الحق به لطيف فى جميع أحواله.(١)

انظر إلى إبراهيم عليه السلام لما قال له جبريل عليه السلام ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا ولم يقل ليس لى جاحة لأن مقام الرسالة والخلة * يقتضى القيام بصريح العبودية ، ومن لازم مقام العبودية إظهار الحاجة إلى الله والقيام بين يديه بوصف الفاقة إليه ورفع الهمة عما سواه فناسب ذلك أن يقول : أما إليك فلا . أى أنا محتاج إلى الله.

وأما عن قول جبريل عليه السلام عندما قال لإبراهيم عليه السلام ألك حاجة . قال : أما إليك فلا وأما إلى الله فبلى.

قيل فى ذلك : أن جبريل عليه السلام علم أن الخليل لايستغيث به وأن قلبه لايشهد إلا الله عز وجل وحده.فقال له حينئذ سله.أى إن لم تستغث بى التزاماً منك عدم التمسك بالوسائط فسل ربك فإنه أقرب إليك منى.

فقال إبراهيم عليه السلام مجيباً له حسبى من سؤالى علمه بحالى. أى أنى نظرت فرأيته أقرب إلىّ من سؤالى ورأيت سؤالى من الوسائط وأنا لا أريد أن أتمسك بشيء دونه ولأنى علمت أن الله سبحانه وتعالى عالم فلا يحتاج

(١) ابن عطاء الله السكندرى : التنوير فى إسقاط التدبير ( القاهرة : مطبعة صبيح ، د. ت ) ص : ٤٠ ، ٤١

* قال المرسى : سمى الخليل خليلاً لأنه خالل سره محبة الله تعالى ( ابن عطاء الله : لطائف المنن القاهرة : ط١٣٩٩هـ ص : ٩٧)

ومما رواه الخليل عن نفسه أنه قال : اتخذت الله خليلا بثلاثة أشياء : اخترت أمر الله تعالى على أمر غيره ، وما اهتممت بما تكفل لى ، وما تغذيت إلا مع ضيف

( ابن حجر العسقلانى : الاستعداد ليوم الميعاد ، بيروت : مؤسسة المعارف ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥هـ ص : ٢٠)

أن يذكر بسؤال . ولايجوز عليه الإهمال فاكتفيت بعلم الله عن السؤال.

هذا هو التوكل الذى يحمل فى معناه الاستسلام والتفويض إلى الله عند الخليل . فكمال التوكل بالحقيقة قد وقع لإبراهيم عليه السلام وذلك فى الوقت الذى قال فيه لجبريل عليه السلام أما إليك فلا . لأنه غاب عن نفسه بالله تعالى فلم يرمع الله تعالى أحداً غيره [1].

ومن هنا يرى الباحث أن الخليل عليه السلام فى مقام الفناء فى التوكل والبقاء بالله.

كما كان مراد الحق سبحانه وتعالى بإرسال جبريل عليه السلام إظهار مقام الخليل عند ملائكته وتبيناً لشرف قدره وعظم أمره.وكيف يمكن لإبراهيم عليه السلام أن يستغيث بشيء دونه وهو لايرى إلا إياه ولا يشهد إلا سواه.

ففى قصة إبراهيم هذه بيان للمعتبرين وهداية للمستبصرين وهو أن من خرج عن تدبيره لنفسه كان الله سبحانه وتعالى هو المتولى بحسن التدبير له . ألا ترى أن إبراهيم عليه السلام لما لم يدبر لنفسه ولا اهتم بها بل ألقاها إلى الله تعالى وأسلمها إليه وتوكل فى كل شأنه عليه . فلما كان كذلك كان عاقبه استسلامه وجود السلامة والإكرام وبقاء الثناء عليه على مر الأيام.

وقد أمرنا الله تعالى أن لا نخرج عنها وأن نرعى تسميته بقوله تعالى:

« ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل ». (الحج: ٧٨)

---

(١) عماد الدين الأمرى: حياة القلوب ، هامش قوت القلوب لأبى طالب المكى جـ٢ ص : ١٤٩

وانظر أيضا : ابن كثير : قصص الأنبياء ( القاهرة : دار الأنوار المحمدية ، د. ت ) ص: ١٤٢

وكذلك : أحمد عبد الوهاب : النبوة والأنبياء فى اليهودية والمسيحية والاسلام ( القاهرة : دار غريب ، ط ١٤٠٠هـ ) جـ١ ص : ٣٥

فحق على كل من كان إبراهيمياً أن يكون عن تدبيره لنفسه برياً وعن منازعة الله خلياً ومن اعتراضه عرياً.

قال تعالى : « ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ». (البقرة : ١٣٠)

وملته لازمة التفويض إلى الله تعالى والاستسلام فى واردات الأحكام ، واعلم أن المراد هو أن لايكون لك مع الله مراد.

كما روى عن موسى عليه السلام لما كلمة ربه مكث دهراً لايسمع كلام أحد من الناس إلا أخذه الغشيان لأن الحب يوجب عذوبة كلام المحبوب وعذوبة ذكره فيخرج من القلب وعذوبة ماسواه.(١)

وقيل لموسى عليه : بم عرفت أن الله تعالى هو الذى كلمك ؟ فقال : لأن كلام المخلوق إنما يسمع من جهة واحدة بحاسة واحدة وهى السمع وإنما كنت أسمع كلام الله تعالى من جميع الجهات بجوارحى كلها فعرفت أنه كلام الله تعالى (٢)

ومما يروى عن عيسى بن مريم عليه السلام أنه قام فى بنى إسرائيل خطيباً . فقال : يابنى إسرائيل ، لاتتكلموا بالحكمة عند الجهال فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموها.

وقال مرة : فتظلموها ، ولاتظلموا طالباً ولاتكافئوا ظالماً ، فيبطل فضلكم عند ربكم.

واسترسل قائلاً : يابنى إسرائيل الأمور ثلاثة : أمر تبين رشده فاتبعوه ، وأمر تبين غيه فاجتنبوه ، وأمر اختلف فيه فردوه إلى الله تعالى (٣).

---

(١) الغزالى : إحياء علوم الدين ( القاهرة : مطبعة الحلبى ، د. ت ) جـ ٤ ص : ٣٣.

(٢) الثعلبى : قصص الأنبياء ص : ١٦٠.

(٣) الأصبهانى : حلية الأولياء جـ٣ ص ك ٢١٩.

كما قال عيسى بن مريم عليه السلام : طوبى لمن خزن لسانه ، وبكى على خطيئته[1]



وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سره أن يسلم فليزم الصمت »[2].

ويترتب على ذلك فى ضوء ما أسلفنا أن الصمت كان حالاً من أحوال الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين اتخذوه مسلكاً وطريقاً لعباده الله وطاعته.

## (٤) الصمت عند الصحابة

ينبغى أن ننبه فى البداية أن الصمت كان حالاً من أحوال السلف الصالح من الصحابة رضوان الله عليهم.

وفى هذا الصدد يقول بعض السلف تعلمت الصمت بحصاه جعلتها فى فمى ثلاثين سنة كنت إذا هممت بالكلام تلجلج بها لسانى فيسكت[3].

وهكذا كان يفعل الصديق رضى الله عنه بأن يضع حجراً فى فمه ليمنع نفسه من الكلام[4].

وكذلك كان حال الفاروق الصمت إلا عن قول حق . كما كان هذا حال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه

ومما روى عن على بن أبى طالب كرم الله وجه أنه قال : « سرك أسيرك فإن تكلمت به صرت أسيره »[5].

(١) ابن حيان البستى : روضه العقلاء ونزهة الفضلاد ص : ٥٣

(٢) رواه ابن أبى الدنيا فى الصمت والبيهقى فى الشعب من حديث أنس.

(٣) أبو طالب المكى : قوت القلوب جـ١ ص : ٩٥

(٤) ملا عبد الرحمن الجامى : الدرة الفاخرة ( كردستان : مطبعة كروستان ، د. ت ) ص : ٢٤.

(٥) أبو الحسن البصرى : أدب الدنيا والدين ص :٣١٠.

وقال أيضاً : اللسان معيار أطاشه الجهل وأرجحة العقل.[1]

كما قال : الخير كله مجموع فى أربعة : الصمت ، والنطق ، والنظر، والحركة . فكل نطق لايكون فى ذكر الله فهو لغو ، وكل صمت لايكون فى ذكر فهو سهو ، وكل نظر لايكون فى عبرة فهو غفلة ، وكل حركة لاتكون فى تعبد فهى فترة : فرحم الله عبداً جعل نطقه ذكراً ، وصمته فكراً ، ونظره عبرة ، وحركته تعبداً ويسلم الناس من لسانه ويده[2].

وقد جاء فى الأثر كانت المسألة من العلم يسأل عنها الرجل من الصحابة فيردها إلى آخر ويردها الآخر إلى آخر حتى ترجع إلى الذى سئل عنها أولاً.[3].

ألا يدل هذا القول السابق على شدة تورع السلف الصالح من الصحابة فيما كانوا ينطقون خوفاً من أن تزل ألسنتهم فالتزموا الصمت واتخذوه طريقاً لهم محافظة على لسانهم من الزلل والوقوع فى الخطأ.

وكذلك من أقوال السلف الصالح فى اللسان وأهميته قول عبد الله بن مسعود فى مخاطبته اللسان : « يالسان قل خيراً تغنم ، واسكت عن شر تسلم ، من قبل أن تندم»[4].

وكان يقول : « مامن شيء على وجه الأرض أحوج إلى طول سجن من لسان».

---

(١) المرجع السابق ص : ٢٧٥.

(٢) محمد جلال شرف : دراسات فى التصوف الإسلامى ( الإسكندرية: دار الفكر الجامعى د. ت ) ص : ٨١

(٣) أبو طالب المكى : علم القلوب ص ك ٧٧

(٤) الحافظ بن أبى الدنيا : الحلم ( القاهرة : مكتبة القرآن ، د. ت ) ص : ٦٥.

ومما يروى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أنه كان يقول :

هذا وأشار إلى لسانه [1].

وينبغى أن نجزم أن الصمت الذى يدعو إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ويأمر به هذا الصحابى الجليل كان حالاً من أحوالهم النفسية التزموا به التزاماً شرعياً فكان صحابة رسول الله خير منفذين لأوامره.

ويحدثنا ابن محيريز قائلاً : صحبت فضالة بن عبيد صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت له أوصنى رحمك الله ، فقال احفظ عنى ثلاث خصال ينفعك الله بهن.

إن استطعت أن تعرف ولاتعرف فافعل . وإن استطعت أن تسمع ولا تتكلم فافعل ، وإن استطعت أن تجلس ولا يجلس إليك فافعال[2].

وكان الأحنف بن قيس رحمه الله جالساً فلم يتكلم ، فقال معاوية مالك لاتتكلم ياأحنف فقال انى أخشى الله تعالى إن كذبت وأخشاك إن صدقت فرأيت السكوت أولى[3].

والملاحظ على هذا القول السابق لهذا الصحابى الجليل أنه تزىّ بزى الصمت والصدق والأدب مع الحق ومع الخلق.

ولقد كان معاذ بن جبل رضى الله عنه وأرضاه فى معية الله ومن أقواله فى هذا الصدد : كلم الناس قليلا وكلم ربك كثيراً لعل قلبك يرى الله تعالى[4].

(١) الشعرانى : تنبيه المغترين ( القاهرة : مطبعة الحلبى ، د. ت ) ص : ٨٤

(٢) أبو نعيم الأصبهانى : حلية الأولياء : جـ ٥ ص : ١٤١.

(٣) الشعرانى : المرجع السابق ص : ١٤

(٤) القشيرى : الرسالة ص : ٩٨

ومما يروى عن عقبة بن عامر رضى الله عنه أنه كان يبحث عن النجاة من دار الدنيا والتعلق بالآخرة فكان يسأل رسول الله فيم النجاة ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أملك عليك لسانك وليسعك بيتك ، وأبك على خطيئتك[1].

ومما رواه بعض السلف أنه قال : جعلت على نفسى بكل كلمة أتكلم بها فيما لا يعنينى صلاة ركعتين فسهل ذلك علىّ . فجعلت على نفسى بكل كلمة أتكلم بها صوم يوم فسهل ذلك علىّ، فلم أنتهى ، فجعلت على نفسى بكل كلمة أتكلم بها أن أتصدق بدرهم فصعب ذلك علىّ فانتهيت.

انظر إلى هذا السلفى الذى أقام نفسه فى مقام المجاهدة ، فجاهد نفسه من الصلاة إلى الصوم إلى الصدقة حتى يدرب نفسه على الصمت.

ولقد قال سول الله صلى الله عليه وسلم بقوم قدموا من الجهاد : مرحباً بكم قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر. قالوا يارسول الله : وما الجهاد الأكبز ؟ قال : جهاد النفس[2]

قال تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وأن الله لمع المحسنين». ( العنكبوت ٩٩)

وروى أن رجلاً قال لأبى سعيد الخدرى أوصنى . قال : عليك بتقوى الله عز وجل فإنها رأس كل خير وعليك بالجهاد فإن رهبانية الإسلام ، وعليك بالقرآن فإنه نور لك فى أهل الأرض وذكر لك فى أهل السماء ،

---

(١) أبو طالب المكى : قوت القلوب جـ ١ ص : ٩٥

(٢) رواه البيهقى فى الزهد.

وعليك بالصمت إلا من خير فإن بذلك تغلب الشيطان.

من وصايا هذا الصحابي الجليل يتضح لنا أنه إذا تسلح الإنسان بالقول

الله عز وجل وجاهد نفسه فى طاعة الله ، وداوم على ذكر الله بترديد كلام الله ، وتوج كل ذلك بالصمت بذلك يستطيع أن يسد باب الشيطان ولايكون له مسلك فيتغلب عليه.

ويدلى أبو الدرداء رضى الله عنه بحكمة رائعة يقول فيها : انصف لسانك من فيك . فإنما جعل لك أذنان وفم واحد لتسمع أكثر مما تقول(٢).

ومن شدة حرص أنس بن مالك رضى الله عنه كان إذا سئل عن شيء ما يقول : سلو مولانا الحسن فإنه حفظ ونسينا(٣).

ويحدثنا عبد الله بين عمرو قائلاً : ذَرّ مالست منه فى شيء ، ولاتنطق فيما لايعنيك واخزن لسانك كما تخزم دراهمك (٤).

ألم يكن هذا حرصاً شديداً فى الدعوة إلى الصمت والتمسك عند هذا الصحابى الجليل بيمثل فى قوله : اخزن لسانك ويربطه بالمال . ويدعونا معه بأن نخزن ألستنا مخافة الوقوع فى الزلل والخطأ.

وهكذا اتضح لنا أن الصمت كان حالاً من أحوال النفس عند السلف الصالح من الصحابة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . تعلموه من أحاديث رسول الله . كما كانت دعوتهم صادقة فى الحث عليه والأخذ به لينالوا رضوان الله والفوز بالجنة.

(١) أبو طالب المكى : علم القلوب ص : ٧٨

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة

(٣) ابن حبان البستى : روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ص : ٥٥

وانظر Stace (W.) : Mysticism and Philosophy- Macmillan; London, 1961 - p. 57

## (٥) الصمت عند التابعين

لقد عاش التابعون فى بداية أمرهم على الفرار من الخلق والانفراد بالملك الحق ، وإخفاء الأعمال ، وكتم الأحوال . وهنا ينبغى أن نوضح أن الصمت كان حالاً من أحوالهم النفسية.

ونسوق الآن أمثلة توضح مانحن بصدده :

مما رواه صاحب « الحلية » عن داود الطائي أنه أراد أن يجرب نفسه هل تقوى على العزلة ؟ فقعد فى مجلس أبى حنيفة سنة فلم يتكلم فاعتزل الناس.

ومما يحكى عن الجاحظ أن رجلاً قال : صحبت الربيع بن خثيم سنتين فما كلمنى كلمتين. قال لى مره : أمك حية ، وقال لى مرة أخرى : كم فى بنى تميم من مسجد ؟[1]

فلما قتل الحسين أتى قوم إليه ، فقالوا لتستخرجن اليوم منه كلاماً . قالوا ياربيع : قتل الحسين فوجم* ... ثم قال : « والله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون » ( البقرة : ١١٣)

وهذا مايذكرنا بالمتكلمة بالقرآن التى تكلم معها عبد الله بن المبارك عندما خرج حاجاً إلى بيت الله فدار معهما حوار طويل . وهو أنه عندما كان يسأل سؤالا كانت تجيبه بالقرآن وبعد أن سأل عنها أولادها فقالوا : هذه أمنا منذ أربعين سنة لم تتكلم إلا بالقرآن مخافة أن تزل وفيسخط عليها الرحمن.

(١) عبد القادر محمود : الفلسفة الصوفية فى الإسلام ( القاهرة : دار الفكر العربى ، ١٩٦٦م) ص: ٢٧٣.

* وجم : سكت عن الكلام لشدة الحزن ( المعجم الوجيز مجمع اللغة العربية ، طبعة وزارة التربية والتعليم ، ١٩٩٣م ص : ٦٦١

ألا يدل ذلك دلالة واضحة على تمسك هؤلاء التابعين الذين ساروا على نهج السلف الصالح من الصحابة الذين ساروا على نهج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى إتخاذهم الصمت شعاراً لهم وإذا تكلموا فلا يتكلموا إلا بالقرآن مخافة فلتات اللسان وأن يحميهم من الوقوع فى الزلل.

ولقد سئل الإمام مالك رحمه الله فقيل له : ياإمام من هم السفلة ؟

فأجاب قائلاً : الذى يبع دينه بدنياه .ثم عرج قائلاً : فياليت العلماء يفيقون من سيئاتهم ، وياليت الدعاة يقومون من نومهم ، وياليت أهل الإسلام يعودون إلى دينهم.

كما أضاف بقوله : إن العالم إذا سئل ، ولم يكن له علم بالإجابة ، فليصمت ، فإن الصمت عند ذلك هو الاجابة ، ومن قال لاأدرى فقد أفتى[1].

وقد قيل : لا أدرى نصف العلم.

وكان إمامنا الشافعى يقول : الكلمة كالسهم إن خرجت منك ملكتك ولم تملكها [2]. كما قال استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكر [3].

ويورد الربيع رحمه الله تعالى نقلاً عن الشافعى رضى الله عنه : ياربيع !! لا تتكلم فيما لايعنيك ، فإنك إذا تكلمت بالكلمة ملكتك ولم تملكها[4].

---

(١) الحافظ بن أبى الدنيا : الحلم ص : ٣١

(٢) الشعرانى : تنبيه المغترين ص : ٨٣

(٣) ابن عجيبة : إيقاظ الهمم فى شرح الحكم ص : ٤١٢.

وللمزيد راجع فى ذلك: الغزالى : المرغوب من مكاشفة القلق ـ القاهرة : مطبعة الشعرلى ، ١٩٨١م) ص : ١٥٨

(٤) النووى، أبو زكريا محى الدين شرف: بستان العارفين (القاهرة : دار الصابونى ،د. ت) ص : ١٠٣ *

ومما رواه الشافعى أيضاً : لو علم الناس مافى الكلام والأهواء لفروا منه كما يفرون من الأسد.

كما قال : من اهتدى بالكلام لايفلح[1].

ومن أشعاره فى الصمت أنه قال [2].

وجدت سكوتى متجراً فلزمته إذا لم أجد ربحاً فلست بخاسر

وما الصمت فى الرجال متاجرٌ وتاجره يعلو على كـل تاجـر

ومما يحكى عن الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه أنه قال : أعداؤك أربعة : الدنيا ، وسلاحها ، الخلق وسجنها العزلة ، والشيطان وسلاحه الشبع ، وسجنه الجوع ، والنفس ، وسلاحها النوم ، وسجنها السهر ، الهوى ، وسلاحه الكلام ، وسجنه الصمت [3].

ولاشك هنا أن الإمام أحمد رضى الله عنه وأرضاه يوضح لنا الداء ، ثم يبين لنا كيفية العلاج بأن لكل داء دواء . ففى عبارته السابقة أن داء الهوى الكلام ودوائه الصمت.

ومما قاله عمر بن عبد العزيز : من لم يعلم أن كلامه من عمله كثرت خطاياه.

ولقد أجاب رجل سأله : متى أتكلم ؟ قال : إذا اشتهيت الصمت ، فقال : متى أصمت ؟ قال : إذا اشتهيت الكلام [4]

وهكذا نجد أن الصمت كان حالاً من أحوال النفس عند التابعين الذين خلفوا السلف الصالح من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

(١) أبو نعيم الأصبهانى : حلية الأولياء جـ ٩ ص : ١١١, ١١٢

(٢) الشافعى ، أبو عبد الله محمد بن إدريس : الديوان بيروت: مكتبة الشرق ، ١٣٩١هـ ) ص : ٤٦.

(٣) ابن عطاء الله : الحكم ، بشرح مصطفى أبو العلا ( القاهرة : مكتبة الجندى ، د. ت ) ص: ٩٤، ٩٥

(٤) الغزالى : مكاشفة القلوب ( القاهرة : مكتبة الزهراء ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ) ص: ٣٤٧.

## (٦) الصمت عند الصوفية :

إن التصوف هو المظهر الروحى الدينى الحقيقى عند المسلمين ، لأنه المرآة التى تنعكس على صفحاتها الحياه الروحية الإسلامية فى أخص مظاهرها . فالحياة الروحية هى التى يخضع فيها الإنسان لألوان مختلفة من مجاهدة النفس.

ومادمنا بصدد دراسة الصمت عند الصوفية حيث أنه يمثل لوناً من ألوان المجاهدة فإن المتأمل فى تاريخ الحياة الروحية الإسلامية عند هؤلاء يلاحظ أن الصمت كان حالاً من أحوالهم النفسية.

ولقد آثر الصوفية الصمت* لما علموا أن الكلام من الآفات ، ثم لما فيه من حظ النفس وإظهار صفات المدح والميل إلى مايميز عن أشكاله بحسن النطق وغير هذا من آفات الكلام(١).

ولقد كان الفضيل بن عياض رحمه الله يقول : من عدّ كلامه من عمله قلّ كلامه.

من هنا قال بعض المتقدمين من أئمة الطب : « من أراد عافية الجسم فليقلل من الطعام والشراب ، ومن أراد عافية القلب : فليترك الآثام ».

كما قال ثابت بن قره : راحة الجسم فى قلة الطعام ، وراحة الروح فى قلة الآثام ، وراحة اللسان فى قلة الكلام. (٢)

وفى هذا الصدد يقول بعض الحكماء إنما خلق للإنسان لسان واحد

---

* مما يقال عن الصمت أنه يجمع للرجل فضيلتين : إحداهما : السلامة فى دينه ، والأخرى: الفهم عن صاحبه.

(١) الشعرانى : المنح السنيه على الوصية المتبولية ( القاهرة: مطبعة الحلبى ، ١٣٧٤هـ) ص : ١٠

(٢) ابم قيم الجوزية : الطب النبوى ( مكة : مطبعة النهضة الحديثة ، ١٣٩٩هـ ) ص : ١٨٤.

وعينان وأذنان ليسمع ويبصر أكثر مما يقول . فمن لم يغتنم السكوت فإنه إذا نطق إنما ينطق بلغو.

وتظهر العلاقة واضحة بين العلم والصمت فى قول بعض العارفين قد جزيء هذا العلم على قسمين : نصفه سكوت ، ونصفه أن تدرى أين تصفه[1].

ألا يدل هذا القول السابق على الارتباط الشديد بين العلم والصمت . فمن لم يصمت ليس بعالم ولا متعلم.

ومن هنا يذهب أحد العلماء فيقسم العلم إلى أربعة أبواب : فأول باب من العلم الصمت ، والثانى استماعه ، والثالث العمل به ، والرابع نشره[2].

وبذلك يكون الصمت عبارة عن تطهير محل العلم من كل كلام ، حتى لاينزل بالقلب إلا العلم ، ولايطرق الأذن إلا العلم[3].

ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « العلم علمان ، علم فى القلب فذلك العلم النافع ، وعلم على اللسان فذلك حجة الله على خلقه»[4]

ومما رواه أبو هريرة رضى الله عنه أنه قال : « حفظت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين . أما أحدهما فبثثته ، وأما الآخر لو بثثته لقطع هذا الحلقوم ». وفى رواية آخرى لقطع هذا البلعوم.

(١) أبو طالب المكى : قوت القلوب جـ ١ ص : ٩٦

(٢) المحاسبى : القصد والرجوع إلى الله ، تحقيق عبد القادر عطا ( القاهرة : دار التراث العربى ، ط١ ، ١٤٠٠ هـ ) ص : ٣٣

(٣) المرجع السابق هامش ص : ٣٣

(٤) رواه ابن المبارك فى الزهد ص : ٤٠٧.

انظر إلى رواى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حبسه أحد الوعاءين من العلم مخافة أن يقع فى الخطأ.

ومما رواه ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : لو قلت لكم فى معنى : « يتنزل الأمر بينهن » لقلتم إن ابن عباس لايؤمن بالله ولا باليوم الآخر.

كل هذه الأقوال وغيرها تدل على دلالة واضحة على أن الصمت كان حالاً من أحوال النفس عن هؤلاء السلف وتبعهم الخلف فى ذلك . فمن حفظ لسانه فقد حفظ جميع جوارحه.

فمن تأمل وجد أشرف أهل كل مجلس وأكثرهم هيبة من كان أكثرهم سكوتاً لأن السكوت زين للعالم وستر للجاهل كما أوضحنا فى ماضى قولنا.

فإذا كان العبد ناطقاً فيما يعينه وما لابد منه فهو فى حد الصمت.

والدليل على صحة مانقول أن الحكماء ورثوا الحكمة بالصمت والتفكير.

ومن الحكم الرائعة التى تبين أهمية الصمت مايروى أن كثرة الكلام تنشف الحسنات كما تنشف الأرض بعد الماء.

لذلك كان الصوفية من المجاهدين لأنفسهم فى جعلهم الصمت حالاً من أحوالهم النفسية تدربوا عليه فعلاً وعملاً مقتدين بذلك بالسلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعى التابعين الذين ساروا على نهج رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومما يروى عن الحسن رضى الله عنه قوله : عظ الناس بفعلك ولا تعظهم بقولك.

هذا القول السالف الذكر للامام الحسن يدل دلالة واضحة على أنه ينبغى على الناس أن يتعلموا الصمت ولاينطقون بأقوالهم وإنما ينطقون بأفعالهم.

وقال فى مضوع آخر : جالس من تكلمك أعماله ، ولا تجالس إلى من يكلمك لسانه[1]

من هنا حرص الصوفية على الصمت وتعلموه وعلموه لمريديهم كى يكون أدباً من آداب الطريق فى سلوكهم إلى الله عز وجل.

ومما يقال عن أبى حمزة البغدادى أنه كان حسن الكلام فهتف به هاتف تكلمت فأحسنت بقى أن تسكت فتحسن . فما تكلم بعد ذلك حتى مات.

ولقد تابع ذو النون المصرى الحسن البصرى فذهب قائلا : جالس من يكلمك علمه لامن يكلمك لسانه.

كل هذه الأقوال وغيرها تدل دلالة واضحة فى حرص الصوفية على تعلم الصمت وذلك لأن الصمت باباً كبيراً من أبواب العلم ، وكذلك الصمت يورث الحكمة.

ولقد أورد السلمى فيما رواه عن النيسابورى أنه قال : قلت لابى حفص مابالكم لاتتكلمون كما يتكلم البغداديون وغيرهم من الناس ، وما بالكم اخترتم الصمت ؟

فأجاب قائلاً : لأن مشايخنا صمتوا بعلم ونطقوا على الضرورة فوقع لهم محل الأدب فى الكلام، فلم يتكلموا إلا بعد ما عقلوا عن الله ، فصاروا أمناء الله فى أرضه ، والأمين حريص على حفظ أمانته[2].

(١) أبو طالب المكى : قوت القلوب جـ ص : ١٧٥

(٢) أبو العلا عفيفى : الملامتية والصوفية وأهل الفتوة ( القاهرة : مطبعة الحلبى ، ١٣٦٤هـ) ص:١١٢

مما يراه الباحث بصدد هذا القول أن الصوفية ربطوا بين الصمت والعلم والأدب . فكان الصمت باباً من أبواب الادب ، وكذلك الادب باباً من أبواب العلم.

ويحدثنا سيفان الثورى عن الصمت فيقول : رمى الناس بالسهام أخف من رميهم باللسان لأنه يخطىء.

كما قال الصمت منام العقل ، والنطق يقظته ، ولا منام إلا بيقظة ، ولايقظة إلا بمنام.

وقال أيضاً : عليك بقلة الكلام يلين قلبك ، وعليك بطول الصمت تورث الورع [1].

والملاحظ بهذا الصدد أن سيفان الثورى ربط بين الصمت والأحوال والمقامات .فهو هنا ربط بين الصمت ومقام الورع عندالصوفية.

وقد قال ابراهيم بن أدهم وغيره من جمهور الصوفية سكوت العالم أشد على الشيطان من كلامه لأنه يسكت بحلم وينطق بعلم.

ومما يرويه القاضى عياض بهذا الصدد فى كتابه « متن الشفا » عن الشيطان قوله : إن أغيظ ما يغيظنى العالم إذا تكلم ،لأنه إذا تكلم فإنما يتكلم بعلم ، وإذا سكت فإنما يسكت بحلم . ويقول : انظروا إلى سكوته فإنه أشد علىّ من كلامه لأنه لو تكلم من الممكن أن أثرثر له.

وقد قيل لإبراهيم بن أدهم : إن فلاناً يتعلم النحو ، فقال : هو إلى أن يتعلم الصمت أحوج.

ألا ترى أن إبراهيم بن أدهم رجح تعلم الصمت على تعلم النحو لما فيه من الفائدة الكبرى.

(١) الغزالى : مناهج العابدين ، تحقيق مصطفى أبو العلا ( القاهرة : مكتبة الجندى ، ١٣٩٢هـ) ص:٩٤

ومما يروى عن أحد الصوفية أنه قال : اجتمعنا ذات يوم فى مسجد فما منا أحد إلا تكلم ، إلا إبراهيم بن أدهم فإنه ساكت ،فقلت : لم لا تتكلم ؟ فقال : الكلام يظهر حمق الأحمق ، وعقل العاقل ، فقلت : لاتتكلم إذا كان هكذا الكلام [1].

وكذلك كان إبراهيم بن أدهم إذا صحبه رجل فجاء بخبر سوء فارقه[2]

كما دعى إبراهيم بن أدهم إلى دعوة فلما جلس أخذوا فى الغيبة فقال لهم عندنا يؤكل اللحم بعد الخبز وأنتم ابتدأتم بأكل اللحم وأشار إلى قوله تعلى « أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه » .. (الحجرات : ١٢).

وقد قيل : إذا اغتنمت بالسكوت فتذكر سلامتك من زلل اللسان.

كما قيل : أدنى نفع السكوت السلامة ، وكفى بالسلامة عافية ، وأدنى ضرر النطق الشهرة ، وكفى بالشهرة بليه.

ومما يروى أن رجلاً قال لبشر بن الحارث : إنى أحب أن أسلك طريق ابن أدهم . فقال لاتقوى . قلت : ولم ذاك ؟ قال : لأن إبراهيم بن أدهم عمل ولم يقل . وأنت قلت ولم تعمل.

أما عن بشر بن الحافى كان يشعر تماماً أنه مع ربه أبداً فيرتفع عن الهفوة الصغيرة وكان يرى الله فى كل شىء.

وقد قيل : إن رجلاً سأله عن مسألة ، فأطرق ملياً ، ثم رفع رأسه ، ثم أطرق ، ثم رفع رأسه قائلاً : اللهم إنك تعلم أنى أخاف أن أتكلم ، اللهم

---

(١) أبو نعيم الأصبهانى : حلية الأولياء جـ ص : ٢٢

(٢) أبو طالب المكى : قوت القلوب جـ ١ ص : ٩٨

إنك تعلم أنى أخاف أن أسكت ، اللهم إنك تعلم أنى أخاف أن تأخذنى بين السكوت والكلام[1].

من خلال ماتقدم عند بشر نستطيع أن نقول أنه عاش فى مقام الخوف وربط بين الصمت والخوف ، وكذلك بين الكلام والخوف ، والخوف مقام من مقامات الصوفية جامع لحقيقة الإيمان ، كما أنه سبب لاجتناب كل نهى ومفتاح كل أمر.

وتصديقا لما نقول ينبغى أن نضيف هنا إلى جانب ما سبق ذكره ما يروى عن بعض الصوفية فقد قيل لبعضهم : تكلم . فقال : ليس لى لسان فأتكلم ، فقيل له : اسمع، فقال : ليس فى مكان فأسمع.

وقال بعضهم : مكثت ثلاثين سنة لايسمع لسانى إلا من قلبى ، ثم مكثت ثلاثين سنة لايسمع قلبى إلا من لسانى [2].

وعن المفاضلة بين الصمت والكلام سئل أبو حفص : أى الحالين للولى أفضل الصمت أم النطق ؟فقال : لو علم الناطق ما آفة النطق لصمت إن استطاع عمر نوح ، ولو علم الصامت ماآفة الصمت لسأل الله تعالى حتى ينطق . فمن علم أن منطقه من عمله قل كلامه.

من هنا قال بعض الأدباء : سعد من لسانه صموت ، وكلامه قوت.

ومما قاله معروف الكرخى : احفظ لسانك من المدح كما تحفظه من الذم[3].

---

(١) محمد جلال شرف : دراسات فى التصوف الإسلامى ص : ١١٧

(٢) القشيرى : الرسالة ص : ٩٩ ، ١٠٠

(٣) عبد القادر الجيلانى : الغنية لطالبى طريق الحق ( القاهرة : مطبعة الحلبى ، الطبعة الثالثة ، ١٣٧٥هـ) جـ ص : ٣٩

وتظهر العلاقة واضحة بين المعرفة والصمت عند أبى سليمان الدارانى حيث كانت المعرفة عنده أدنى إلى الصمت منها إلى الكلام[1].

هذا القول السابق للدارانى نستخلص منه أنه كان يعيش صامتاً أكثر منه متكلماً ومن وجهة نظره أن المعرفة الحقيقية إنما تكون فى جانب الصمت أكثر منها فى جانب الكلام.

ويورد لنا صاحب الحلية ، نقلاً عن الجنيد بن محمد أنه سأل أبو جعفر بن الكوفى إن الرجل يتكلم فى العلم الذى لم يبلغ استعمال كل علمه . كلامه أحب أم سكوته ؟

فسكت ساعة مطرقاً رأسه ، ثم رفع رأسه إلىّ فقال : إن كنت هو فتكلم[2].

ومما قيل : الناس حوانيت مغلقة ، فإذا تكلموا فقد فتحوا ، هناك يتبين البيطار من العطار.

ومن أقوال الرفاعى فى هذا الصدد : جمال القلب بالخوف ، وجمال العقل بالفكر ، وجمال الروح بالشكر ، وجمال اللسان بالصمت ، وجمال الوجه بالعبادة ، وجمال النية بترك الخواطر ، وجمال الفؤاد وبترك الحسد ، وجمال النفس بالمخالفة ، وجمال السر بالصبر ، وجمال الحال بالإستقامة ، وجمال السير بالتسليم ، وجمال الخدمة بالأدب ، وجمال الكلام بالصدق ، وجمال الطريق بموافقة الشرع ، وجمال الكل بتوفيق الله [3].

---

(١) محمد مصطفى حلمى : الحياة الروحية فى الإسلام ( القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤) ص : ٥٠

(٢) أبو نعيم الأصبهانى : حلية الأولياء جـ١ ص : ٢٢٤

(٣) مصطفى كمال وصفى : أحمد الرفاعى ( القاهرة : المطبعة الرفاعية ، د. ت ) ص : ٥٠ ، ٥١

ولعل من ذلك يتضح لنا مدى تعمق الإمام الرفاعى رضى الله عنه فى بيان كيفية ارتباط المقامات والأحوال عند الصوفية بالأعمال . وعدد كذلك عدداً من المقامات فلكل مقام حسبما يرى علم وحال وعمل . وكذلك أورد أن جمال اللسان لايكون إلا بالصمت .

ومن هنا يرى الباحث أن الرفاعى ربط بين الصمت والمقامات عند الصوفية.

ويدلى ابن عطاء الله السكندرى بقوله : « كل كلام يبرز عليه كسوه القلب الذى يبرز منه».

ويعلق ابن عجيبة على هذا القول السابق قائلاً : علامة الكلام الذى يسبقه التنوير هو تأثيره فى القلوب ، ونهيجه الأرواح ، وتشويقه الأسرار ، فإذا سمعه الغافل انتبه ، وإذا سمعه العاصى انزجر ، وإذا سمعه الطائع زاد نشاطه، وعظم شوقه ، وإذا سمعه السائر طوى عنه تعب سيره ، وإذا سمعه الواصل تمكن من حاله ، فالكلام صفة المتكلم . فإذا كان المتكلم ذا تنوير وقع فى قلوب السامعين ، وإذا كان ذا تكدير حدّ كلامه آذان المستمعين ، فكل كلام يبرز عليه كسوة القلب الذى برز منه.

ولذلك قال سيدنا على رضى الله عنه : « من تكلم عرفناه من ساعته، ومن لم يتكلم عرفناه من يومه »[1].

وأشار إلى صدره قائلاً : إن ها هنا علوماً جمه لو وجدت لها حملة.

وقد قال بعض العارفين : « من كان قلبه روحانياً كان كلامه معنوياً، ينزل من القلب أوسع ساحاتها ، ومن كان قلبه نفسياً كان كلامه حسياً ، يعنى لايتكلم إلا فى الحس ولايخوض إلا فيه ، ومن طمس أذن قلبه حجب الدنيا فلا يسمع ولا يُسمع.

(١) ابن عجيبة : إيقاظ الهمم ص : ٣٢١

هذه الأقوال وغيرها دليل قاطع على ما وصل إليه الصوفية من صمت بلغ حد الورع عندهم.

فلقد ألزموا نفوسهم التأدب بآداب السنة فنور الله قلوبهم بالمعرفة ، وهم فى ذلك كانوا متابعين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى أوامره ، وأفعاله ، وأخلاقه ، والتأدب بآداب قولاً ، وفعلاً ، وعزماً ، وعقداً ، ونية[1]

## (٧) الصمت والأحوال والمقامات عند الصوفية.

الحال يطلق لغة على الوقت الذى أنت فيه وما عليه الشخص من خير أو شر . ويطلق اصطلاحاً لدى الصوفية على المعنى الذى يرد على القلب بلا تصنع ولا اكتساب . كما أن الحال هو ما يحل فى القلب من صفاء الأفكار بدون مجاهدة أو تفكير [2] أما المقام يطلق اصطلاحاً على مايتحقق به العبد من الآداب . أما عند السالكين فالمقام هو الوصف الذى يثبت على العبد ويقيم ، فإن لم يثبت سمى حالاً.[3].

ونستعرض الآن علاقة الصمت بالأحوال والمقامات عند الصوفية.

### الصمت والورع :

ينبغى أن نوضح فى البداية أن كثرة الكلام إنما يكون فيه قلة الورع ، وعدم التقوى ، وطول الحساب ، وكثرة الطالبين ، وتعلق المظلومين ، وكثرة الأشهاد من الأملاك المكاتبين، ودوام الإعراض من الملك الكريم ، لأن الكلام مفتاح الكبائر ، فيه الكذب والغيبة والنميمة والبهتان ، وفيه شهادة الزور.

---

(١) محمد مصطفى : المقامات والأحوال ( القاهرة ، دار الطباعة المحمدية ، ١٩٨٨م ) ص : ٢٤٣.

(٢) أبو عبد الرحمن السلمى : أصول الملامتية وغلطات الصوفية ( القاهرة : مطبعة الإرشاد ، ١٩٨٤م) ص : ٣١

(٣) الكاشانى : اصطلاحات الصوفية ( المنيا : دار حراء . ١٩٨٠م) ص : ٩٧ ، ٩٨

من هنا يجب أن نوضح أن الصمت يلقح العقل ، ويعلم الورع ، ويجلب التقوى . فلا زاد أفضل من التقوى ولاشيء أحسن من الصمت.

ومما يروى بهذا الصدد أن هناك خصالاً يحبها الله وأخرى يبغضها فأما اللاتى يحبها فهى : قله الكلام ، وقلة النوم ، وقلة الأكل . وأما اللاتى يبغضها : كثرة الكلام ، وكثرة الأكل [1].

وعن الأحنف بن قيس قال : قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « ياأحنف ، من كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه قل حياؤه ، ومن قل حياؤه قل روعه ، ومن قل روعه مات قلبه»[2].

والملاحظ على وصية أمير المؤمنين عمر بن الخطاب للأحنف أنه ربط فيها بين الصمت والحياء والورع ، فمن يتسلح بهم مات قلبه.

من خلال ماتقدم يتضح لنا أن من كان الصمت حاله فإنه بطول الوقت يملك الورع.

## الصمت والصبر :

تنعقد العلاقة الوثيقة بين الصمت والصبر فى قول بشر بن الحارث الحافى : الصبر هو الصمت ، والصمت من الصبر ، ولايكون المتكلم أورع من الصامت إلا رجل عالم يتكلم فى موضعه ويسكت فى موضعه .[3]

وعلى حسب هذا التعريف السابق للصمت عند بشر نستنتج منه أنه ربط بين الصمت والورع والصبر . وبين لنا أن الصمت حال من أحوال النفس . وبالتالى يكون الصمت حالاً من أحوال الصبر . فكل من كان

(١) أبو طالب المكى : قوت القلوب جـ ١ ص ٩٧ : ٩٨

(٢) ابن حبان البستى : روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ص : ٦٧.

(٣) عبد الحليم محمود : بشر بن الحارث ( القاهرة : مطابع الشعب ، د. ت ) ص : ٦٢

صابراً فلابد وأن يكون صامتاً . ،أن الصمت هنا بمنزلة الجزأ والصبر بمنزلة الكل.

فمقام الصبر قالوا فيه : حبس النفس على البلوى ، وعقل اللسان عن الشكوى لما يثق به من حسن العقبى[١] .

ويشهد لهذا ماواه رويم عن الصبر بأنه ترك الشكوى [٢] .

فالعلاقة قائمة هنا بين الصمت والصبر . فمن كان حاله الصمت كان مقامه الصبر.

وبذلك يكون الصمت من الأحوال ، والصبر من المقامات.

ومن دراستنا للتصوف الإسلامى عرفنا أن الأحوال مواهب ، والمقامات مكاسب كما أن صاحب الحال أدنى من صاحب المقام . فإذا دام للسالك حال الصمت مع الصبر أصبح مقامه الذى هو فيه مقام الصبر.

## الصمت والرضا :

الرضا كما يعرفه أحد الصوفية هو سكون القلب تحت جريان الحكم[٣] وبذلك يكون الرضا ترك السخط ، لأن النعمة والمصيبة تستويان أمام المريد.

ولقد ذهب رويم إلى أن الرضا هو استلذاذ البلوى. [٤]

ومما يؤيد هذا الرأى مايروى عن سفيان الثورى : جاءه جل يشكو إليه

---

(١) ابن الخطيب : روضة التعريف بالحب الشريف ص : ٤١١.

(٢) أبو عبد الرحمن السلمى : طبقات الصوفية ( القاهرة : مصابع الشعب ، ١٣٨٠هـ) ص : ٤٣

(٣) السيد المنوفى : التصوف الإسلامى الخالص ( القاهرة : مطبعة نهضة مصر ، ١٩٧٩م ) ص : ١٣٦

(٤) أبو عبد الرحمن السلمى : المرجع السابق نفس الصفحة

مصيبته . فقال له سفيان : أمد برّ أم مدبرٌ ؟ فقال : بل مدبرٌ ، قال : فارض مما يدبر لك.

ولعلنا نلاحظ على هذا القول السابق لسفيان الثورى أنه ربط فيه بين الصمت والرضا [١].

كما أخبرنا الجنيد قائلاً : « مرضت مرضة ، فسألت الله أن يعافينى ، فقال لى فى سرى لاتدخل بينى وبين نفسك » . ومعنى ذلك أن تحقق وصف « التسليم » و « الرضا » من أسباب البلاء [٢].

فالرضا ترك الاختيار ، وهو دوام عدم الاعتراض.

وترى رابعة العدوية أنه لايمكن أن يصل إلى تمام الرضا عن الله من يشتكى من علة ألمت به ، وآلام انتابته ، أوفاقه دهمته ، لأن مايجرى به القضاء والقدر سبق فى علم الله ، ولا ينبغى للعبد أن يشكو من عمل قضى به الله . وإلا كان آثماً فى حق مولاه[٣].

ومما يحكى عن الدارانى أنه قال : أرجو أن أكون عرفت طرفاً من الرضا ، لو أنه أدخلنى النار لكنت بذلك راضياً.

فقد نعم أبو سليمان الدارانى فى الرضا فأطلق صرخة مدوية قائلاً فيها : « لو اجتمع الناس على أن يضعونى كاتضاعى على نفسى ، لما قدروا علىّ . فقد رأى الدارانى فى قيمة حلاوة الخدمة [٤].

ويتضح لنا من هذا القول السابق أن الدارانى قد انصهر فى بوتقة مقام

(١) عبد الحليم محمود : سيفان الثورى ( القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٦م) ص : ٤٥

(٢) محمد مصطفى : المقامات والأحوال ص : ١٤٧)

(٣) عبد المنعم قنديل : رابعة العدوية : مطبعة التراث الإسلامى ، د. ت ) ص : ١٢٣ .

(٤) الشعرانى : الطبقات الكبرى ( القاهرة: مطبعة صبيح ، د . ت ) جـ١ ص : ٦٨

الرضا حتى أنه بلغ غايته ، ساكناً قلبه تحت سلطان الحقيقة ، غارقا فى الحب الإلهى .

والذى نراه أيضا أن الدارانى تأثر بآراء رابعة العدوية مردداً فكرة الخلة والحب.

كما نرى فى مقام الرضا لدى الدارانى هو قلب الحياة الصوفية ، والمحور الذى تدور حوله أخلاق الصوفى ، فمنه ينبع التوكل على الله ، والزهد فى الدنيا ، والرضا يورث السكينة فى القلوب ، والاطمئنان إلى أحكام قضاء الله ، وهو صنو المحبة ، بل هو ثمرتها لأن شأن المحب أن يرضى بكل مايفعله المحبوب، لأن منه من الله على العبد [1].

ونحن نرى أن أبا سليمان الدارانى قد حدد مقام الرضا للعبد الكامل فيقول : « من رضى بكل شىء فقد بلغ حد الرضا ، ومن تورع فى كل شىء فقد بلغ حد الورع ، ومن زهد فى كل شىء فقد بلغ حد الزهد[2].

ومما رويه الشاذلى عن أحد الأولياء أنه كان يقول : « أشكو إلى الله من برد الرضا والتسليم كما تشكو أنت من حر التدبير والاختيار . فقلت له : أما كشواى من حر التدبير والاختيار فقد ذقته وأنا الآن فيه . وأما شكواك من برد الرضا والتسليم فلماذا ؟

قال : أخاف أن تشغلنى حلاوتهما عن الله . [3]

وعلى ذلك فإن الراضى عن الله تعالى هو الذى لايعترض على تقديره، فيرضى بالقضاء الذى قدره والرضا به . إذ ليس كل ماهو بقضائه

(١) أبو نعيم الأصبهانى : حلية الأولياء جـ٩ ص : ٢٧١

(٢) المرجع السابق ص : ٢٦٦

(٣) عبد الحليم محمود : أبو الحسن الشاذلى ( القاهرة : دار التراث العربى ، ١٩٧٧ م ) ص : ٧٥

يجوز للعبد أو يجب عليه الرضا به.

ويترتب على ذلك فى ضوء ما أسلفنا مدى ارتباط الرضا بالصمت . فإذا كان الصمت حالاً من أحوال النفس فإن الرضا مقام من مقاماتها.

## الصمت والصدق :

يرى الصوفية أن الصادق هو من اعتاد الصدق ، فإذا وصل إلى العادة أصبح صدوقاً ، وهذا يصبح الصدق من أخلاقه فى الدنيا والآخرة، فيمن الله سبحانه وتعالى عليه بمرتبه عالية هى أعلى المراتب والمقامات الروحية ، وهى مرتبة الصديقين[1] .

ومما يحكى عن بشر أنه قال : من عامل الله بالصدق استو حسن من الناس .[2] فمن صدق مع الحق قطع علائقه من الخلق [3]

ومما رواه أبو سليمان الدارانى عن الصدق أنه قال : اجعل الصدق مطيتك ، والحق سيفك ، والله سبحانه وتعالى غايتك ومطلبك.

فكأن الدارانى يتخذ من الصدق أساساً من أسس الطريق وميزاناً للمجاهدة والطاعة يؤدى إلى معرفة الله على الحقيقة مدللاً بقوله : « لو أراد الصادق أن يصف مافى قلبه مانطق لسانه» .

هذه الأقوال وغيرها تدل دلالة واضحة على مدى ارتباط الصمت بالصدق عند الصوفية .فإذا كان الصمت حالاً من أحوال النفس فإن الصدق مقاماً من مقاماتها.

(١) حسن الشرقاوى : الشريعة والحقيقة ( الإسكندرية : الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٧٦م) ص: ٢٨٤

(٢) الغزالى : إحياء علوم الدين جـ ٤ ص : ٣٧٥

(٣) ابن عربى : الحكم الحاتمية ( القاهرة : مطبعة عالم الفكر ، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م) ص : ١٨

## (٨) الصمت والخلوة عند الصوفية.

تعتبر الخلوة من المستلزمات الروحية التى يؤديها المريد فى الطريق الصوفى . والتى يهتم بها مشايخ الطرق لتربية النفوس وتزكية قلوب مريديهم. ويعتقد الصوفية أن الخلوة هى تدعيم للتوبة وتثبيت للإخلاص ، وسير فى طريق الله عز وجل . وهى أفضل لحظات يقضيها الإنسان وربه ، وهى عزلة عن الناس وقربه إلى الله ، وفيها يستغفر الإنسان من ذنبه ، وينظر إلى نفسه فيصلح عيوبها ، ويداوى ما أعوج من أمرها . ويتوب عما اقترف من ذنوب وآثام[١] .

ومما رواه سهل بن عبد الله لايصح لأحد الصمت حتى يلزم نفسه الخلوة ، ولاتصلح له التوبة حتى يلزم نفسه الصمت.

وعلى ضوء ما تقدم يتضح لنا أن سهل قد ربط بين الصمت والخوة والتوبة عند الصوفية. فإذا أراد الإنسان الصمت فلا بد له من الخلوة ، وكذلك إذا أراد التوبة فلا بد له من الصمت فكأن الصامت صاحب خلوة وصاحب توبة.

وقيل : السلامة عشرة أجزاء ،تسعة منها فى الصمت وواحدة فى العزلة.

كما قيل : الحكمة عشرة أجزاء ، تسعة منها فى الصمت عما لايعنى ، والعاشرة فى العزلة.

وبناء على ماتقدم فإنه يجب على المرء أن يلزم نفسه الخلوة ، لأن الخلوة أصل ، والخلطة عارض.

---

(١) الشعرانى : الأنوار القدسية فى بيان آداب العبودية ، هامش الطبقات الكبرى جـ١ ص : ١٦٥.

ومن هنا كان عليه أن يلزم الأصل ولايخاط إلا بقدر الحاجة ،وإذا خالط يلزم الصمت فإنه أصل[1].

فالسكوت حلية الأبدال ،وملازمة البيوت ضرب من الخلوات. والاعتزال والسكوت من المحال . فلابد من نطق على كل حال . وليس من شرط البيان حركة اللسان . فإن لسان الحال أفضح وميزانها فى الإبانه عن نفس صاحبها أرجح ، وملازمة البيوت عن النطق بلسان الحق.

من هنا فإن الزهاد آثروا العزلة والانقطاع عن الناس باتخاذهم الخلوات، وغلق بابهم عن قصد النلس إليهم ، وآخرون بالسياحة فى الجبال والشعاب .. فنفس الله عنهم من إسمه الرحمن بوجوه مختلفة من الأنس به [2].

## (٩) شروط الكلام :

لقد تحدثنا عن الصمت فى معرض حديثنا السابق بقى علينا أن نتكلم عن شروط الكلام . للكلام شروطاً لايسلم المتكلم من الزلل إلا بها ولايعرى من النقص إلا بعد أن يستوفيها وهى أربعة :

فالشرط الأول : أن يكون الكلام لداع يدعو إليه إما فى اجتلاب نفع أو دفع ضرر.

والشرط الثانى : أن يأتى به موضعه ويتوخى به إصابة فرصته.

والشرط الثالث : أن يقتصر منه على قدر حاجته.

---

(١) الغزالى : روضة الطالبين وعمدة السالكين ، تحقيق محمد مصطفى أبو العلا ( القاهرة : مكتبة الجندى ، د. ت ) ص ٢٤

(٢) على عبد الجليل راضى : الروحية عند ابن عربى ( القاهرة : مطبعة نهضة مصر ، ١٩٤٦م) ص : ٢٠

والشرط الرابع : أن يتخير اللفظ الذى يتكلم به.

تلك هى الموضوعات التى أردت أن أعرض لها فى إطار دراستى لموضوع « سيكولوجية الصمت » دراسة إسلامية نفسية.

## (١٠) خاتمة ونتائج عامة للبحث :

والآن بعد أن فرغنا من دراستنا لموضوع : « سيكولوجية الصمت » . دراسة إسلامية نفسية يجب علينا أن نلم فى هذه الخاتمة بأهم النتائج التى انتهينا إليها نلخصها فى النقاط التالية :

(١) الصمت نور العقل ، والنطق يقظته . ومعنى ذلك لابد من النطق والكلام . فالمتكلم بالخير خير من السكوت عنه ، والصمت عن الشر خير من التكلم به . فأما الصمت الدائم فبدعة منهى عنها.

(٢) الواجب على المرء أن يتعلم الصمت كما يتعلم الكلام . فمن قل كلامه كثر صوابه . من هنا كان للمرء فى الصمت خصلتان : إحداهما : أن تدفع بها جهل الجاهل . أى جهل من هو أجهل منك . والأخرى : أن تعلم بها علم من هو أعلم منك.

(٣) يجب على الإنسان أن يضع نفسه فى موقف المخالفة لنفسه بمعنى إذا أعجبه الكلام فليصمت وإذا أعجبه الصمت فليتكلم.

من هنا قال حكيم : إذا أعجبك الكلام ماصمت ، وإذا أعجبك الصمت فتكلم.

ولاشك أن هذا لون من ألوان التربية النفسية يتخذه المرء علاجاً لنفسه محاسباً لها.

(٤) يمثل الصمت أدباً من آداب الحضرة الإلهية لقوله تعالى ﴿وإذا

قريء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ».

(٥) ينبغى أن نوضح هنا أن الصمت حكمة . فمن كان صامتاً كان حكيماً . وكذلك الصمت قليل فاعله.

(٦) الصمت ليس بمخصوص على اللسان ولكنه على القلب ، بل على الجوارح كلها . وقد قيل : عفة اللسان فى صمته.

(٧) يجب على المرء أن يعقل لسانه إلا عن حق يوضحه ، أو باطل يدحضه ، أو حكمة ينشرها ، أو نعمة يذكرها . فمن هنا يتبين لنا مواطن نطق المرء وإلا كان آثماً.

(٨) يكسب الصمت صاحبه المحبة ، ويلبسه ثوب الوقار ، وكيفيه مؤنة الاعتذار.

ومن هنا يمكن أن يقال : لسان المؤمن وراء قلبه إذا أراد أن يتكلم تفكر ، فإن كان له تكلم ، وإن كان عليه أمسك . وقلب المنافق على طرف لسانه أى كل شيء خطر بقلبه تكلم ولايتوقف ولاينتهى.

(٩) يجب على المرء أن يدرك أن بين الصمت والنطق برزخ يقام فيه قد العقل ، وفيه قبور الأشياء لذلك فإن من أطال صمته اجتلب من الهيبة ما ينفعه ، ومن الوحشة ملا يضره .

(١٠) لبيان أهمية الصمت قال بعض الحكماء : مقتل الرجل بين فكيه . لذلك كان من الواجب على العلماء الإقلال من الكلام إلا إذا كان الكلام فى تسبيح وتحميد وتهليل وتكبير ، وكذلك إذا كان الكلام لأمر بمعروف أو نهى عن منكر.

ومن هنا كانت آفة العالم أن يكون الكلام أعجب إليه من الصمت.

(١١) الجدير بالذكر أن الحكمة ليست فى قصاصة اللسان . ولو كان الأمر كذلك لكان سيدنا هارون أولى بالرسالة من سيدنا موسى.

(١٢) الواجب على المرء أن يستعين على قضاء حاجاته بالسر والكتمان حتى يكون مستناً برسول الله صلى الله عليه وسلم فى قضاء حاجاته.

(١٣) ينبغى أن يفهم أن الصمت من أمهات الطريق فى القرب من الحق سبحانه وتعالى.

(١٤) ينقسم الصمت إلى نوعين : أحدهما صمت باللسان ، والآخر : صمت بالقلب فصمت اللسان من منازلة العامة وأرباب السلوك ، وصمت القلب من صفات المقربين أهل المشاهدات.

(١٥) لقد كان الصمت حالاً من أحوال النفس عند الأنبياء صلوات الله وصلامه عليهم أجمعين. وكذلك كان حالاً من أحوال النفس ، عند السلف الصالح من الصحابة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . كما كان الصمت حالاً من أحوال النفس عند التابعين وتابعى التابعين الذين خلفوا السلف الصالح من الصحابة . وكانوا جميعاً على نهج رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١٦) يمثل الصمت عند الصوفية لوناً من ألوان المجاهدة ، فالمتأمل فى تاريخ الحياة الروحية الإسلامية عند الصوفية يلاحظ أن الصمت كان حالاً من أحوالهم النفسية.

ولقد أثر الصوفية الصمت على الكلام لما علموا أن الكلام فيه من الآفات ، ثم لما فيه أيضاً من حظ النفس ، وإظهار صفات المدح والميل إلى

مايميز عن أشكاله بحسن النطق وغيرها من آفات الكلام.

(١٨) تظهر العلاقة واضحة بين العلم والصمت فى قول بعض العارفين قد جزيء هذا العلم إلى قسمين : نصفه سكوت ، ونصفه أن تدرى أين تصفه.

ولذلك قسم أحد العلماء العلم إلى أربعة أبواب : فأول باب من العلم الصمت ، والثانى استماعه ، والثالث : العمل به ، والرابع : نشره.

(١٨) يرتبط الصمت بالأحوال والمقامات عند الصوفية فكان الصمت معيناً لهم فى الترقى فى الأحوال والمقامات.

(١٩) يرتبط الصمت بالورع عند الصوفية لأن فى كثرة الكلام قله الورع.

ومن هنا يجب أن نوضح أن الصمت يلقح العقل ويعلم الورع ويجلب التقوى . فمن كان حاله الصمت فإن بطول الوقت يملك الورع.

(٢٠) يرتبط الصمت بالصبر فالصبر هو الصمت ، والصمت من الصبر ، ولايكون المتكلم أورع من الصامت إلا رجل يتكلم فى موضعه، ويسكت فى موضعه.

(٢١) يرتبط الصمت بالرضا والصدق . وعلى ذلك فإن الراضى عن الله تعالى هو الذى لايعترض على تقديره . ومن هنا يتبين لنا مدى ارتباط الرضا بالصمت ، وكذلك ارتباط الصمت بالصدق . فمن كان حاله الصمت أورثه مقام الصدق.

ومن هنا أيضا يهتف أحد الصوفية قائلاً : « من عامل الله بالصدق استوحسن من الناس . فمن صدق مع الحق قطع علائقه مع الخلق.

(٢٢) لقد أورد بعض الصوفية أنه لايصح لأحد الصمت حتى يلزم نفسه الخلوة.

ولذلك فإن الزهاد قد آثروا العزلة والانقطاع عن الناس باتخاذ الخلوات.

ومما ينبغى التنبيه إليه فى هذا المقام أنه لابد من النطق والكلام فى الإبانة عن نفس صاحبها إذا كان آمراً بمعروف أو ناهياً عن منكر.

(٢٣) للكلام شروط لايسلم المتكلم من الزلل إلا بها . وعلى ذلك فلابد للمتكلم من أن يستوفى هذه الشروط.

تلك هى النتائج التى توصلنا إليها من خلال دراستنا لهذا البحث . وفيما استخلصته من نتائج فى إضافة جديدة إلى ماعرف عن : «سيكولوجية الصمت».

دراسة إسلامية نفسية

كما أرجوا أن يكون اسهاماً منى فى هذا المجال وهو ما وضعناه نصب أعيننا من بداية هذا البحث.

إن لى شرف الصواب فى كل ما أصبت فيه ، كما إن لى شرف الخطأ إن جانبنى التوفيق فى شىء لأن لى عذر الباحث عن الحقيقة مع صدق القصد فى توفى السبيل اليها.

والله نعم المستعان وعليه التكلان.

## (١١) ، مراجع البحث ، :

### ابن :

(١) ابن الخطيب : لسان الدين بن الوزير ) :
روضة التعريف بالحب الشريف ، تحقيق عبد القادر عطا ( القاهرة الأولى ، ١٣٨٦هـ)

(٢) ابن تيمية : (تقى الدين أبى العباس أحمد بن عبد الحليم ) :
الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ( القاهرة : مطبعة المدنى ، ١٤٠١هـ)

(٣) ابن حبان : ( الإمام الحافظ أبى حاتم محمد بن حبان البستى )
روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ، تحقيق محمد حامد الفقى ( القاهرة : مكتبة السنة المحمدية ، د. ت )

(٤) ابن حجر : ( أبو الفضل أحمد بن على العسقلانى ) :
الاستعداد ليوم الميعاد ( بيروت : مؤسسة المعارف ، الطبعة الأولى . ١٤٠٥ هـ)

(٥) ابن رجب الحنبلى : ( زين الدين أبى الفرج عبد الرحمن بن شحاب الدين ) :
جامع العلوم والحكم ، خمسة أجزاء ، تحقيق الأحمدى أبو النور ( القاهرة : مطابع الأهرام ، ١٩٦٩م).

(٦) ابن عجيبة : ( أحمد بن محمد بن عجيبة الحسنى ) :
إيقاظ الهمم فى شرح الحكم ( القاهرة : مطبعة الحلبى ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٢هـ).

(٧) ابن عربى : ( محيى الدين ) :

الحكم الحاتمية المسمى الحكمية ( القاهرة : مكتبة عالم الفكر ، ١٤٠٧هـ)

(٨) ابن عطاء الله السكندرى : ( أبو الفضل تاج الدين أحمد بن عبد الكريم ) :

التنوير فى إسقاط التدبير ( القاهرة : مطبعة صبيح و د. ت )

(٩) ابن عطاء الله السكندرى :

الحكم ، جزءان ، بشرح محمد مصطفى أبو العلا ( القاهرة : مكتبة الجندى ، د. ت )

(١٠) ابن عطاء الله السكندرى :

لطائف المنن فى مناقب المرسى وشيخه الشاذلى ( القاهرة : مكتبة القاهرة ، ١٣٩٩هـ)

(١١) ابن قيم الجوزية : ( أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن أيوب ) :

الطب النبوى (مكة : مطبعة النهضة الحديثة ، سنة ١٣٩٩هـ)

(١٢) ابن كثير : ( الحفاظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى).

قصص الأنبياء ( القاهرة : دار الأنوار المحمدية ، د . ت )

**أبـــو**

(١٣) أبو الحسن البصرى : ( على بن محمد بن حبيب البصرى الماوردى)

أدب الدنيا والدين ( القاهرة : المطبعة الأميرية ، ١٣٢٩هـ)

(١٤) أبو العلا عفيفى : ( الأستاذ الدكتور ) :

الملامتية والصوفية وأهل الفتوة ( القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ، مطبعة الحلبى ، ١٣٦٤هـ).

(١٥) أبو طالب المكى : ( محمد بن على بن عطية الحارثى المكى ) :

علم القلوب، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ( القاهرة ، مكتبة القاهرة ، د. ت ).
(١٦) أبو طالب المكى: قوت القلوب ، جزءان (لبنان: دار صادر، د. ت ).
(١٧) أبو عبد الرحمن السلمى.
طبقات الصوفية ، ترتيب أحمد الشرباصى ( القاهرة : مطابع الشعب ، ١٣٨٠هـ).
(١٨) أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهانى : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء عشرة أجزاء ( القاهرة : مطبعة السعادة ١٣٩٩هـ)
(١٩) أحمد عبد الوهاب :: النبوة والأنبياء فى اليهودية والمسيحية والإسلام ( القاهرة : دار غريب ، ١٤٠٠هـ)
(٢٠) الثعلبى : ( أبى إسحاق أحمد بن محمد بن ربراهيم النسابودى ) :
قصص الأنبياء ( القاهرة : طبعة القاهرة ، د. ت )
(٢١) الجيلانى : ( عبد القادر ): الغنية لطالبى طريق الحق ، جزءان (القاهرة : مطبعة الحلبى ، الطبعة الثانية ، ١٣٧٥هـ)
(٢٢) الحافظ بن أبى الدنيا : الحلم ( القاهرة : مكتبة القرآن ، د . ت )
(٢٣) حسن الشرقاوى ( الاستاذ الدكتور ) : الشريعة والحقيقة ( الإسكندرية : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦م)
(٢٤) السمرقندى : ( نصر بن محمد بن ابراهيم ) : تنبيه الغافلين ( القاهرة : مطبعة الحلبى ، د.ت)
(٢٥) السيد المنوفى : التصوف الاسلامى الخالص ( القاهرة: مطبعة نهضة مصر ، الفجالة . ١٩٧٩م)

(٢٦) سعيد حوى : تربيتنا الروحية ( القاهرة : دار التراث العربى ، سنة ١٣٩٩هـ)

(٢٧) الشافعى : (أبو عبد الله محمد بن إدريس ) :

ديوان الشافعى ، جمعة وعلق عليه محمد الزغنى ( بيروت : دار العلوم الحديثة ، الطبعة الرابعة ، ١٣٩١هـ).

(٢٨) الشعرانى : ( عبد الوهاب بن أحمد ) :

المنح السنية على الوصية المتبولية ( القاهرة : مطبعة الحلبى ، الطبعة الخامسة ، ١٣٧٤هـ).

(٢٩) الشعرانى : تنبيه المغترين ( القاهرة : مطبعة الحلبى ، د. ت ).

العين

(٣٠) عبد الحليم محمود : ( الأستاذ الدكتور ) :

ابو الحسن الشاذلى ( القاهرة : دار التراث العربى للطباعة والنشر ، ١٩٧٦م)

(٣١) (عبد الحليم محمود : بشر بن الحارث الحافى ( القاهرة : مطابع الشعب ، د. ت ).

(٣٢) عبد الحليم محمود : سيفان الثورى ( القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٦م)

(٣٣) عبد الحليم محمود : عبد الله بن المبارك : مطبعه الشعب ، ١٤٠٢هـ)

(٣٤) عبد القادر محمود : ( الاستاذ الدكتور )

الفلسفة الصوفية فى الاسلام ( القاهرة : دار الفكر العربى ، ١٩٦٦م).

(٣٥)عبد المنعم قنديل : رابعة العدوية ، عذراء البصرة البتول ( القاهرة :

مكتبة التراث الإسلامى ، د. ت )

(٣٦) على عبد الجليل راضى : الروحية عند ابن عربى ( القاهرة : مطبعة نهضة مصر ، ١٩٤٦م)

(٣٧) عماد الدين الأموى : حياة القلوب فى كيفية الوصول إلى المحبوب ، هامش قوت القلوب لأبى طالب المكى ، بيروت ، دار صادر ، د. ت ).

(٣٨) الغزالى : ( أبو حامد محمد بن محمد ( : إحياء علوم الدين ، أربعة أجزاء ( القاهرة : مطابع الشعب ، د.ت )

(٣٩) الغزالى : ( أبو حامد محمد بن محمد) : المرغوب من مكاشفة القلق ( القاهرة : مطبعة الشمولى ، ١٩٨١م)

(٤٠) الغزالى : ( أبو حامد محمد بن محمد ) : روضة الطالبين وعمدة السالكين ضمن رسائل القصور العوالى ، تحقيق محمد مصطفى أبو العلا . القاهرة : مكتبة الجندى ، ١٣٩٢هـ)

(٤١) الغزالى : أبو حامد محمد بن محمد ) : مكاشفة القلوب ( القاهرة : مكتبة الزهراء ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ)

(٤٢) الغزالى : ( أبو حامد محمد بن محمد ) : مناهج العابدين ، تحقيق محمد مصطفى أبو العلا ( القاهرة : مكتبة الجندى ، د. ت ).

(٤٣) القشيرى : ( أبو القاسم عبد الكريم بن هوزان ) : الرسالة ( القاهرة : مطبعة صبيح ، د. ت ).

(٤٤) المحاسبى : الحارث بن أسد ) : التوبة ، تحقيق عبد القادر عطا ( القاهرة : دار الإصلاح ، د.ت )

(٤٥) المحاسبى : القصد والرجوع إلى الله ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ( القاهرة : دار التراث العربى ، ط١ ، ١٤٠٠هـ)

(٤٦) محمد جلال شرف : ( الأستاذ الدكتور ) : دراسات فى التصوف الإسلامى ( الاسكندرية : دار الفكر الجامعى ، د. ت ).

(٤٧) محمد على الصابونى : النبوة والأنبياء ( القاهرة : طبعة الثاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٠هـ)

(٤٨) محمد مصطفى حلمى : (الأستاذ الدكتور ) الحياة الروحية فى الإسلام ( القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤م)

(٤٩) مصطفى كمال وصفى : ( الأستاذ الدكتور ) : أحمد الرفاعى ( القاهرة : المكتبة الرفاعية الأحمدية ، د، ت )

(٥٠) ملاجامى عبد الرحمن : الدرة الفاخرة ( كردستان : مطبعة كردستان العلمية ، د. ت )

(٥١) النبهانى : ( يوسف بن إسماعيل ) : جامع كرامات الأولياء ( بيروت : المكتبة الشعبية ، ج ١ ، ١٣٩٤هـ)

(٥٢) النووى : ( الإمام أبى زكريا معين الدين بن شرف ) : بستان العارفين ( القاهرة : ( دار الصابونى ، د.ت )

(53) Mohamed Ekabal : The Conceftion of good and the meaning of prayer. III

(54) Stace. (W. ) : Mysticism and Philorophy -, Mocmillan, London, 1961.